على صفيح النضوج
للكاتب:
تميم خضّور

على صفيح النضوج

للكاتب : تميم خضّور

الخامسةُ فجراً منذ أربع سنين تعطشت فيها عيناي للنوم ليومنا هذا حيثُ تراقصتِ المعاني على هوامشِ أفكاري، وتجمعت منذ ذلكَ الحين لنجلس على مائدةِ الحلم، ونناقشَ موسيقانا البابلية .
أجل أحبّتي، أنا الّذي أكتب كما وعدتكم حين بكينا على مرِّ تلكَ اللّيالي الثّكلى ، دمعةً دمعةً في صحوةِ وجداني .
بالفطرة أُحبُّ أن أحيا ، أُحِبُّ أن أُمجَّدَ ،أُخلَّدَ .. أُحبّ نفسي جدّاً، وأرى أنّي عظيماً في عين نفسيه
مشاعِرُ الكمال تأخذني بعيداً بعيداً لأرى "آشور" تعانقني، لأرى السّماءَ في عيونِ الفرات، لأرى "زنوبيا" تهديني الوردة الثالثة والعشرين من جدائلها.
إنّه بمحضِ المصادفة قليلٌ من التّرياق الّذي شربتهُ من شيبةِ والدي العجوز، فهو أرادني مثلهُ مُختلفاً، صلباً، جامحاً، وسيماً، ذا لكنةٍ عربيّةٍ حادّةِ الطّباع ..

أما بعدُ ... فقد اعتزلتُ هوامش الفجرِ الخامس، وبدأ قلمي يسيرُ على السطور خطوةً خطوةً في معمدِ الكتاب .
أُمسيةً سعيدةً أيّها الغيم، أظنّنا عُدنا أصدقاء ..، أليس من الغباء ألَّا تلبّي دعوتي؟ عندما كنتُ ساهراً مع سمائك الأرملة، كانت تقرأ لي كفّي، وتخبرني عن جنون نزواتي، أردتك أن تغنّي لي بعض المطر، فهي كانت مشمئزَّة من روافدِ النّيلِ على راحةِ يدي، أخبرتُها أنَّ فيكتوريا أرادت أن تفيضَ بي بعضَ الشّيء، فسخرت ونعتتني بالثَّمل ، ونسيتْ أنّي ارتشفتُ أقداحها كي أُنسيَها توحُّدي .. ، يدخلُ علينا الشّتاءُ خلسةً، وينادي:أين هو معشوق الرّياح؟ ،، ألاقيه متعجّباً..ها أنا ذا يا بردُ- الظّلمة بين أضلعي- ،.. "صمتٌ عارمٌ"، لقد استيقظت على نغم صوتِ أُمّي .. انهض يا صغيري، فالأقدارُ لم تمطر، ولديك عمل .

إنّها صاحبةُ جناح الملائكة الحنون ، كانت تريدني فيلسوفاً لكنّ الصيفَ أتى مبكّراً فلم تسنح لي الفرصة أن أصحو وخدي ملتصقٌ على ورقةٍ استسلمت للنعاس وأنا أفسر فيها سِرَّ وجودي .

وأنا ذاهبٌ إلى عملي أرى بجانبي مقعداً بالياً، جريدةً هائمةً بغبارٍ اعتلى شفاهها فتخبرني:

لا تحزن كثيراً يا صديقي، فبعضٌ من الصّيف يُجِفُّ نبعكَ العذب، وقد تقسو الرّياحُ في خريفك فتسلبك لون أوراقك الخضرُ ، امضِ قُدماً .. ليرحمكَ الشّتاء .

ضحكاتُ طفلٍ مُهذّبٍ تُتلى على مسمعي حين أراقبُ سماءَ غُرفتي وهي تغوصُ في الظّلام، طفلٌ يُجالِسُ جدولاً بريئاً ، جدولٌ ذو خدّين ورديَّين تكادُ الدماءُ تكسوهما، أراهما يتصافحانِ بجديةٍ ليريا أعينهما في صفاءِ بعضهما ، يقبّلانِ جبين الفرح المسافر على عجلٍ، يوصلانهِ إلى حافّةِ الشّلّالِ ، فتسقطُ الشّمسُ خلفهما على عجلٍ ..، صوتُ أُمي مرةً أُخرى:لا تبكِ يا صغيري فعيونكَ هي كُلّ آياتِ الصّبرِ في قلبي .

لم أُدرك حينها أنّها إحدى مزحات الصّيف ، فيغافل القمر سماء غرفتي، ويوقظني من ذكرياتي، يمازحني بمبسم نوره على خدّيَ المبتلّ قائلاً:لا عليك فخيوط الدّمعِ على وجنتكَ غزلٌ ريفيٌّ معتاد .

إنّها سكراتُ طفولتي ،كانت طفولةٌ أشبهُ بوأدٍ لرغباتي الجميلة
التي أرادني والدي أن أتخلّى عنها لسببٍ بسيطٍ "شرقيّته
المتوارَثة".

وحمامةٌ تنتظرُ حلولَ النور لتستعرضَ بياضَ قلبها مترقبةً بشغفٍ اللَّون السَّماويَّ المزركشَ ببعضِ غمامةٍ لا مباليةٍ ، تتحسّسُ الرّياحَ الصّيفيّةَ الباردة القادمة من أطلسِ عمرها ، إنّها غريزةُ التّباهي حين تبدأ بِحُبِّ تقاسيم وجهك المُتغيّرة. إنّهُ شعورُ الجمال الخارجيّ.. عندما لا يدركُ مُحيطكَ أنَّ قعركَ تهمّشَ، وتهشّمَ حينَ خيّبتْ ظنونهُ شقائق النّعمان. إنّهُ يا عزيزي بدايةُ ضياعِ نفسكَ البهيّة ، إنّه لمن سوءِ الحظِّ أنّكَ لا تملكُ عشّاً يحتضنُ نضوج عقلك المراهق. إنّها المأساةُ الكبرى أنّكَ لا تجدُ من يعتني بريشكَ النّاصع، إنّها الواقعة الحزينة في حياتك .. حين توهب نفسكَ للقدر بكلّ فشل، نفسكَ المحطَّمة قد يرمقها من حولك باستهزاءٍ بسبب ضعفك، وغياب عكّازكَ الإلهي، فتصبحُ بسرعةٍ مراهقاً ساذّجاً مبعثرَ الأفكار .

وأنتم ثِقوا بالطفولة يا ناضجي القطار، فتلكَ الكذبةُ البيضاء هي أرقُّ وألين من أن يُدنّسها عقلُنا الشرقيُّ الأرعن، وإن اتسخت أجنحة باطنكَ النّاصعة، فقل معي:وداعاً لنفسكَ التي عهدتها.
ها قد أتى خريف الصّفصاف ، وسارت الورقةُ الصّفراء على طريق البُزُقِ الأخير ، والمُلحّن هَرمَ على بياتِ حُلمه، فبدأتِ الرّيشةُ عزفها .. فلنستمعَ قليلاً للأفكارِ المُنشِدة :
الملحمة الكبرى حينَ تجثو لحلمكَ العقيم وأنت تُشاطرهُ الألم، حين تمسح دموعك بوسادتك في وداعكَ اليوميّ ، حين تُثقِلُ كاهلَكَ أوتارُ الحياةِ المتقطِّعة، حين تغرّدُ لكَ الطّرقاتُ المنسيّة لحن غيابك، حين يكون غريمُك التعب، وغرامُك راحةُ معصمكَ المُتآكل، عندما تبكي على حين غرة دموعك الفاسِدة.

فاجتماعُكَ الدّائم مع الزّاويةِ المُظلمة في غرفتك هو سِركَ المكشوف، ومراقبتكَ الجادّة لأمواجِ أفكاركَ المتضاربة هو غباؤُك المُقنع ، حديثُك الطويل مع شبحِ مخيلتك يكادُ أن يُمسيَ جنوناً لكنّكَ بعد كُلِّ هذا مقتنعٌ تماماً باكتفائك بالنّوم، طبعاً تظنّهُ ضعفاً لكثرةِ انتقادات المارّة من شرفةِ نافذتك، لكن صدقني في يومٍ ماستكتشفُ أنّك كوّنتَ إنساناً عظيماً جبّاراً عندما جالستَ خيوطَ الظّلام.

فلخيوط الظّلام هذه رحمةٌ مخفيّة ، فهي توهم المرء بوهنه، وتحقنه باللامبالاة، تغريه بصلاتها الغجرية، وتلقّنه دروساً في السّرمديّة لتجعل كلّ ضوء في ذاكرته أسودَ، فينمو في رحمِ الوهن صلابةً من اللاشيء الذي يقدمه لتدفّقاتِ الرّكعات التّعيسةِ في جامعه الدّاخليّ، فهو اعتاد الشّكوى لخالق السّماء .

ويُقدِم بعد تخمته من كميات الغبار المزعجة على التخلّص من زيّ الطّفل المشؤوم، ويقتلع شوك التّجاعيد العالقة على ظلّ جسده ، ويحتسي شراباً مختلفاً، ولم يعد يهرب من رؤية ملامحه الشّتوية في مرآةِ الصّباحِ الجديد، يرتدي زيّه المصنوع من كبد المعاناة، ويسرحُ شعرهُ الأشعث بمشطِ الانكسارات ، ويمعن النّظر جيّداً بشّابٍ ذي ثمانية عشر باباً دمشقيّاً عتيقاً، لتُقَبِّل المرآةُ شفاهه الضّاحكة، وتدعوهُ للسّكوت.

فهنا أنا وعقلي وحلمي الجديد نعلن العزاء، والبكاء المضحك على ضعفنا حين تذوب الشّمعة المهرّجة، ونستلقي مرّةً أُخرى لنودّع ليالي سماء غرفتنا المسكينة.

_الثامن عشر من كلّ حياةٍ ، بدايةُ إعدام الغباء، أوّل نقطة وضعت على قراراتك..هنا بدأ إكسير النّضج بالخفقان، فها هو النّدم يستولي عليك، هنا، وفي هذه العاصفة توصَدُ عليك أغلال الحِكمة، وتقفل زنزانة الوعي على عقلك منتظراً يوما آخر قبل الحكم. الآن تريدُ أن تُنصِفَ نفسك قليلاً؛ لأنّ الغريزة تريدُ أن تتحرّر من جحرها القديم، تريد أن تنبت حبّة الحبّ في أرض قُدسك المُحتلّ، تريدُ أن تحيا الحياة فيك مرّةً أخرى، تعتلي جبهتَك لهفةُ الغريب، وتسدلُ ستارة الخوف عن عينيك، وتبدأُ أشرعتك بالطّيران .
إنّها بدايةٌ عفويةٌ للحبّ، النّبتةُ الآن أورقت في خلاياكَ الغافلة، فماذا تعرفُ عن الحبّ؟
تمازحني جارتي، وتقول بجديةٍ:إنّه الزّواج، وإنجاب الأطفال، وأنا لا يروقني حديثها؛ لأنّها تمشي في الظلّ كثيراً .

ونجمةٌ ما من خلفي تحطُّ على كتفي، يعجبها حديثي الدّائم عن انتصاري على ذاتي ، تقول لي:الحبُّ يا شقيقَ اللّيلِ هو حاجتُك المنقطعة للشّعور، وأيّ شعور! إنّه عيبُكَ في النّقصِ تراهُ في شخصٍ مميّزٍ في عين قلبك ، هو خسارةُ عقلكَ المُتجبّرِ أمام قلبكَ الفوضويّ، الحبُّ في قاموسِ التّعساء هو الرغبة في كسر قيود التخفي، هو دون شكٍّ أول قصيدةٍ كتبتها عن خصرِ عبلة الجاهليّ، الحبُّ يا صديقي هو الخيار الصّادق بدون تفكير جادّ ، وفي النّهاية هو الحصول على الرّغبة، والاكتفاء.

وهنا نحلةٌ أُعجبت بجدائلِ الزهور، هي جادةٌ في إعجابها ، فلون الوردة الليلكي ببهائه يسطو على أحلامها.
فقد سألتُ عجوزاً تسكن خلف دار سَكينتي: ما هو الإعجاب ؟..
فأجابتني بطلاقةٍ:الإعجابُ يا حفيدَ النور هو إصابتك بسهم الحبّ في معركتك الدائمة مع العابرين، هو ولادةُ اللآلئ في عينيك البنيتين، هو عثورك على كنزكَ الضائعِ تحت أهرامِ المصريين، هو عثوركَ على الشُّهُبِ المسرعِ بين كل تلك النجوم، هو التقاءُ مشرقك بمغربكَ، هو عيناك الملاحقتان لظلّ عصفورة تستلقي على شاطئٍ صيفيٍّ، إنّه يا عزيزي بدايتكَ الجميلة.

ووجهُ فاتنة الضحى يطرق أبوابَ مشاعرك، تِلك الملاكُ السماوي، ذاتُ وجهٍ أبيضَ تَحسبُ القطبَ ما بين شفاهها، وخدها.. عيناها سحريتان بشكلٍ غيرِ منطقي ، عندما لمحتها رأيتُ التايتانك غارقة في أطلسِ مُقلتيها .

كلُّ بني العرب، كلّ هولهم، في بؤبؤ تلك العيونِ الساحرةِ.
فهي تمشي خطوةً، فتحسبُ الأرض نهضت من ثباتها، ومشت.

إنْ ضحكتْ ،ضحكت لي السماء.
أتذكر جيداً أنني اقتبست كلماتي من مبسمها. خصرها حادُّ الحواف فتذبحُ كلّ المعاني أمام جماله، هي أجمل نخلة بين دجلة، والفرات، هي أجمل قصيدةٍ عُلقت في قُريش.
والوصف قليلٌ في حقول القمح، قليلٌ وجيزٌ، في خيوط الحريرِ الذهبي كنت أشعر بالمسافة الشاسعة بين قلبي، والأرض حين تحملُ النسمةُ الشتوية شعرها الحريري.
لكنّ لون الفراشة الأبديُّ عالقٌ في ذهنك، فأنتَ لم تنسَ موشحاتك، كل حقول الحبّ لا تحتويك، كل أسطح العالم لا تكفيك لتتنقل في هدوء الليل بين السحاب .
فاعترافُكَ الآن هو مَثَلٌ شعبيٌ مُقنِطع، فهو مثلما اعتدنا "الحبّ الأول" .
تمسِكُ سنبلةً خضراء لتكتب، فحبرها لا زالَ مثلكَ شاباً، تبدأ كتابة أغنيتك الخضراء، وتختصر معناكَ ضِمنَ خبرٍ، وترسله مع النور الآفل، فيقابلُ اخضرارُ سُلّمكَ الموسيقيّ بالحبال الشاهقة، وتُرفَضُ أُغنيتُك بسبب سطحيةِ الجمهور،
وتواسي نفسكَ بمديح الانكسار ، فثِقوا بالسُّنبلةِ يا سكان أغنيتي .

وهنا تغرقُ مرةً أخرى في أسئلتكَ المنحرفةِ عن سبب كلّ هذا الحطامِ الداخلي، وترفض فكرة تقبل نفسك الناقصة، فتبدأ بحثك الأول عن الكمال.

بدأ شيءٌ من الذاكرةِ يقرعُ أجراسَ كنائسي، ملامِحٌ نُقِشت بالدمعِ على جدارِ فؤادي إنْ شردتُ ارتسمت لي وهي هائمةٌ بي..كيف أنسى وجه ملاكي السماوي؟

إنّي أعيشُ صراعاً داخلياً يكادُ يمزقُ ما بي من لُطف فيجعلني أكرهها تارةً، وأخرى أحِبّها

أتمناها دائماً، وأرفضها قليلاً وقليلاً جداً

وإن كُنتَ قد خُذِلت ، فأخبرني.
هل جفَّ حبرُ عينيكْ وأنت تبكي؟
هل سقطتَ على فراشكَ نائماً بعدما هزمكَ القدحُ العاشر؟
هل التبثتَ الليل خلسةً ورميتَ بنفسكَ في العدم؟
هل قبّلتَ قعرَ كأسٍ مُغبَّرةٍ لترى انعكاسَ عمامةِ الوحدة؟
هل صليتَ لغيمةٍ بأن تُحبكَ، فبكتكَ شتاءً؟
هل تمنيتَ، فضحكتَ، وعندما تذكرتَ أُمنيتكَ ذَبُلت؟
هل صافحت الفجر سنينَ، ونسيت أنكَ ابنُ الشمس؟
إن كُنتَ قد فعلت ، فلديَّ كأسٌ أُخرى أسفلَ خدّ وسادتي هلّم
وأحضِرهُ ، فلدي بعضُ ما أقولهُ لك عني.
وهكذا بقيت السنبلةُ تنتظر أنامل الحصاد، جثت أمام أول غمامةٍ قادمةٍ من خلف الجبال، نعم نحن أهلُ الجبال، نحن أقرب السنابل لرياح بحور العشقِ البدويّ ،نحنُ تأملنا الشتاء قبل بزوغ أول قمر في فجر الأبجدية، نحنُ أول من نُقشت أسماؤنا على صفحات الجذور، إنَّ المدّ عندما يقسو يقتلع جذور الإنسان من كتابِ اليقين.

فنحن يا قارئي هذا الليل ولِدنا بحُبِّ الشتاء،ولدنا تُسمَعُ تراتيلُ
أرقنا في الأندلس، وتُدّرَسُ آياتُ صبرنا جنوباً في القُبلة ،
نحنُ الرمادُ الأزلي على كُلِّ أشجارِ الحنين، نحن صوت العنقاء
الباكي، نحن شهوةُ الموت الرقيق.

_نبتةُ الحبّ لم يُغرِها نموها، فسقطت في لحدها العذري، والخذلان اتخذ كهفه البلوري ملجأً قبل هبوطِ الليل على المياه، وروحكَ المُلحدةُ صادقت سرب اللقالق في هجرتها الموسمية، وعدت وحدك منكسراً إلى فراشكَ الحجري، والآن أنتَ تراقب نقصك في مديحه الدائم حول تغلبه على وسامة عقلك، وتسأل أسئلةً كثيرةً عن كيفيةِ النهوض من حفرة الغباء ،فخطوتكَ القادمة هي أريكةُ عقلك، فأمعن في قراءةِ فنجانكَ المسائي، الآن تُريد مفاهيمَ جديدةً لكلّ من حولك، تريد ثأراً فارسياً لمصرعِ بلبلكَ العاطفيّ

_الآن تريد إثبات رجاحة عقلك أمام مشاهدي مسرحيتك الهزلية، جمهوركَ هم بعضُ الأقارب، وبعضُ المعجبين، ومجتمع لا يكترث لتحطيمك خلف الستار ،فخلف الستار مصرعُ نعامةٍ متأثرة بجراحِ أحلامِ حديقتها، وقطةٌ تحملُ الندى عن كتفي البرد، وسربٌ من البوم ينتظرون عبورَ فأرٍ ما لحقولِ الهواء ، سيغريكَ زيُّ الحملِ الوديع، ولن تكترث لأمرِ الذئاب، فتحاولُ نيل إعجاب الزرافة المتعجرفة بقرنَيْ جهلكَ الحاديّن، وتحِلُّ الكارثةُ عندما يهجم قطيع الذئاب على حظيرة لطفك ،فقد كانت المشكلة في واقعنا الشرقي هي كثرة الكلام عن الفراغ، واتخاذ المزاحِ أباً روحياً للجميع، وبراعةُ الجميع في التنكر بزيِّ المحبّة، وطلاقةُ لسانهم في تحطيم الأنفس في محضرهم الجاهل .

فالحبق ينمو رغم زحام الهشير، وعبقه المُنكر يرافقُ خيوطَ الشمس إلى السماء، ونبيذ القَزِّ يعتقُ يوماً بعدَ يوم في الشرنقةِ البحرية ،

فجهادكَ في تحطيمِ أوثان العادات هو خلاصك المستَحَقّ، تدنيسكَ لشرقية الكلام السافل هو سبيلك للعبور، اجتيازك لعوائق السخافة الطبقية ولطمُك لرائحة التَجبر هو العمود الفقري لصلابتك، نسيانُك لماضيك المحبِط هو شراعكَ لتبحر عبر الشمس .

توحُّدك في الزاويةِ لا يعني غرابة أطوارك، وبساطتك في فهم الدخان لا تهم في التنفس، عزلتك مع سجائرك اليهودية لا تهديك مرضاً خبيثاً ،فأنت قادرٌ بلا شكٍ على السفر، فها هي فراشتكَ مزقت شرنقتها وبدأت بحثها عن سهول النرجس اللوجستي بعد تناولها نبيذَ الصبرِ العتيق.

وأعظمُ كفاحٍ لسمكةِ السلمون هو صعود الشلال، فهي تجاهد في سبيل النّجاة بعبور النهر عكسَ التيار، تلكَ غريزةُ النجاةِ لديها، لأنّ السير مع تيارات الأجداد كان، ولا زال سبب عُقمِ عقولنا المستوطنة، والكفاحُ الحقيقي هو تحملك لانتقاداتِ الخفاش عندما يراك تتأرجحُ تحتَ الشفق، وتسلّقك جبال الوعي الكوني تحتَ أشعةِ الخسوفِ القاصرة فزبدةُ الحياة هي أنّ بطولتك العظيمة هي سحق الصخور العتيقة العالقةِ بينَ حاجبيك، ونصرُك الحقيقي حينَ تجدُ مفتاحَ بابِ إرادتك الضائع، فتحزم حقائب السرور، وتسخرُ من نداءِ المزارعِ المُحبط، وتنير قنديلك في الضباب .

لقد كان نور قنديل المهاجرين يخترقُ الضّباب، والنّسيان ويسرق ساعاته من وقتك، والعقاربُ تُعِدُّ الفطورَ التقشفي لروحك المناضلة. وتبحث في عقول العابرين عن وتدِ الرّخاء، تبحث عن الخلاء، تسألُ المغامرين عن خريطةٍ معكوسةٍ لتجدَ نفسك المدفونة، رمالُ اختلاف الكنار هي السّبب في غرابتك، والسّكون تحت عرائشِ السّماء هو توحدك اليومي .

جُهدك المبذول في النجاة وحدك ينهكك أحياناً، صوتكَ يحتاج لإصغاءِ أذن السرو العنيد، والشّمعة إذ تذوبُ .. تذوبُ .

ولكن ما يهم من احتراقِ الشّمعةِ هو النّور المسحور، وخيوطها الشّمسيةُ التي تشقُّ طريقاً دائماً في الظّلام، فيقابلُ جسدها الذّائب بالنكران المستمر كأنّ النّار يا أهل الثّلج نتاج الصّدف.

فعيون البرد تراقب بتمعنٍ خطواتك الدافئة، واللامبالاة التي جنيتها هي كنزٌ للحاذقين ، تهيمُ بكَ الخيولُ حُبّاً، وبعض الذّباب يزعجهُ فخركَ بجسدكَ الجّديد .

وبعضُ المارةِ المعتادين يستنشقون عبق اللازورد الذي تضعه على قميصِ الكمال، وتريدُ...تريد جداً أن تُشاركَ النّحل في نسجِ الحرير .

لأنّ للنحلةِ هوسٌ مختلف، فهي تحبُّ حديثَ الكاردينيا عن مضمون رحيقها الرّوحيّ، حديثها الطويل عن صداقةِ الرّبيعِ الوفيّ تولّدُ شغفاً عسلياً بَهيّاً ،

فعندما تختارُ سِربك اختر بعناية، وعندما تُصادق الزّهور أنصِف في صداقتك ، فرابطُ الوفاءِ بين السّرب ينبتُ من شغفِهم ذاته في حُبِّ الرّبيع، ورحيق الصّدق المتبادل ما نتاجه غيرُ صداقةٍ عسليةٍ ،وانظر لمن حولكَ بتمعنٍ، ودهاء، ولا ترمِ نرداً خاسراً على طاولةِ أحد، وازرع في صدورِ من تحبّ نباتاً بطيء النّمو ، فالصّفصّافُ لا يغريهِ خريفُ البلهاء.

لأنّ الصّفصّاف ذو طبعٍ جميل، هو يصارع السّحاب في معركته اليومية لبلوغِ النّجوم، فهو اكتسب إرادتهُ، وصلابتهُ من قسوةِ الرّياحِ على ذراعيه.

وأجعل إرادتكَ تقودكَ دائماً للنصر، وأسلك طريقَ النجومِ المنتظر، ابنِ من حطامِ الذكرياتِ جسراً متيناً لعبورِ فيضانِ مشاعرك، ولا تصدق أقوالَ السّنديان أبداً، أنّ هنالك تحت كُلِ ركامٍ كنزاً مخفيّاً، فالرّكام أغلبُ الأوقاتِ ركام، واتسمْ بصفاتِ النّسور عند حواركَ مع عجائزِ الغمام، ولا تنتظر مجيء الشّفق لينيرَ لكَ سبيلك، أنت اتجه إليه، فكل يومٍ تقضيه بالاستّماعِ لموسيقا إنجازاتِ النّجوم هو مضيعةٌ لحلمك، ولن يجعل منكَ شُهباً.

وقد يتراءى لك من قلب السّراب ظلٌّ ورديٌ زاهيٌ، يسير ببطءٍ وحدّةِ قدم لينظر إليك كأنّكَ اللاشيء الجميل.

_ففي حياتنا يدخلُ أُناسٌ يغمرون صباحنا بالبهجة، طيورُ حُبٍّ سرمديّةٍ أنيقةِ التّفكير، يصنعون من خرابنا وشاحاً فُستقياً جميلاً ليرتدوه في أُمسياتهم الغزلية،وكلامهم عن دفء عاطفتك العميق يثيرُ مشاعرَ الكمال فيك، فيدفعك لتقلب طاولة خمولِ عواطفك، وتنكّس أعلام الغرابة الرّوحية، ويسقونكَ جرعاتٍ غزيرةً من الكبرياء .

فلجرعات الكبرياء هذه تأثيرٌ غزليٌّ فيكَ، فأعمدة الحبّ لا تصمدُ إلّا على يدِ الجّبابرة، وقسوةُ الأيام لا يَمحوها إلّا يدُ امرأةٍ سحرية
،
هي في نظري حب النّاي لوتر العودِ في الكمان، وجناحا الرّحمة الإلهيّ، هي وجهُ الملاكِ المُشعُّ في ليل تعبي، والحنانُ القمري على بحيرةِ الإرهاق، والمصادفةُ الجّميلةُ حينَ تتوارد خواطرُ الشّعراء، هي من الألف إلى الياء، هي أحلى ملكات سبأ، وأكثرهن جمالاً، هي الصّدق الذي جعلني صامداً عنيداً، هي التي احتضنت آلام قلبي العَصية، هي انتصاري الدّائم على انكساراتي، هي من قال عنها رمسيس الثاني بأنّها:
"هي التّي تشرق الشّمس من أجلها ".
هي الملكة نيفرتاري .

فالورد لولا الغيم ما غنى قصائدَ الرحيق، ولا تفتّحت براعم عشقه لتقبل النّدى، ولا فاحَ عِطرُ الغرامِ في أرضِ الحجاز .
وفي الحقيقة أنّك بحاجةِ الغيم حتى ولو كُنتَ صلباً.
فأنت تحبُ مُراقبة المطرِ السعيدِ المنتظرِ لقاءَك الشّتوي، وفي وِجدانك رائحةُ العشقِ التّرابيّة بعد أولِ شتاء .
فاختر غمامتكَ بِكُلّ دقّةٍ، لِتستلقِ بثقةٍ على نهدها عندما تُرافقها المسير ،وتَمكّن من حُبّ عيوبها قبل جمالها الباطني، واخترها في كُلّ رقصةٍ، وانتظرها عندَ كَل موقفٍ لحافلةِ الوفاء، فهي تُقبِلُ كلما شعرتْ بشوقك إليها .
هذا لأنّ السمومَ يا صديقي موسميّة فأنتَ مُعرضٌ للإعصارِ في أي وقت، قلاعُك معرضة للدمار بعدَ كُل كابوسٍ تمرُ به آمالك .

فتعلم أن لا تيأس، تعلم جيداً النّهوضَ بعد كُلّ سقوط، اجعل من قوتك رهاناً تجابهُ بها مشاكلك اليومية، وتيقّن أن التّعثر هو أساس الرّقص الحنجلي، تفهم محيطك بمنطقٍ غربيٍّ، وكن مع الإبل كواحةٍ شرقية، لا تتلاسنْ مع النّعامة حتى، ولو تمردت، وكابر مثل الهلال، فبالرغم من تقلصه، فهو مُنير.ولا تَغُرَّنكَ كُلّ فناجين القهوة، فأنتَ عشيقُ الهال .

وهنا فُنجانُ شايٍ أخضر، وبخارُ غضبكَ يتصاعد ،وقطرات الندى على شفاه الفنجانِ تراقبك، تترقب أن يخمدَ البخار لتتذوق طعمك الحلو أنت كذلك يافعٌ شديدٌ ليثٌ ذو أعصابٍ بركانية عند الغضب. وقلبك يضجُ بوداد السّكر على الشاي، لكن حدتكَ تخيفُ قطرات الندى من تقبيلك ،فأدرك نفسكَ دائماً، أخفض حدة وتيرتك، وتمالك نفسك جيداً.

لا تجعل الغضب منتصراً في صراعكما الدّائم.

تعلم مِن الليل، فهو إذا قسى على الزهور، أهداها ندى محبته كُلَّ صباح، واجعل مَن حولَك يتذوق طيبَ مضمونكَ الحلو .
فقد يتوه النّورس في طريقه البحريّ قليلاً، فكثرةُ سفره تملأُ شقوقَ ذاكرته، والبحرُ بطبيعةِ الحال مُغرٍ للمُضيّ دوماً، وجناحا النّورسِ خُلِقا ليطير .

ولطالما كان للإنسان دوماً حصةً كافيةً من الضّياع، فرحلتهُ الطّويلة خلف الضّباب تجعله يسلكُ طرقاتٍ خاطئة، وغالباً ما يجلس على ناصيةِ الحلم، ويتأمل خطواته المهدورة سدىً .ولا تخف فقد تجد كثيراً من الإخفاق في صعودِ الجبال، ولا تظنَّ أنّ كُلّ السّهولِ سالكة، ومهما تعبت استمرّ في التّقدم، فكلُّ سقوطٍ هو بدايةٌ أُخرى لك، ونحن خلقنا لنحارب الهزيمة، ونصرنا كثيراً ما يكونُ بعيد المنال، فانهضْ من ثباتك، وامضِ .

فعرائش العنب الصّيفية، وأشجار الزّيتون المتناثرة، وأمواج الليمون الرّيفيّ، وحدائق التّوت الربيعيّة، وبرك المياه الماسيّة، وينابيع المياه المنفجرة من صلب الصخور، وسفوح جبالنا الخضراء المسنّة، هي عشقنا الأزليُّ.

فنحن قد تعلّمنا أن نحترم الهدهد في مروره النّادر أمام بيوتنا، وتعلّمنا أن نتعطّش دائماً لمياهنا العذبة، تعلّمنا أن اتّكاء بيوتنا على بعضها هو رابطٌ أبديّ بيننا، تعلّمنا أن نستيقظ على رائحة التّنور الصباحيّ، وأن نخلد إلى النّوم وعلى ثيابنا رائحة البَخُّور النّسائيّ عالقة . وتعلمنا أن ننام واقفين ونحن نكلّم المساء، وأن نستضيف العابرين بكلّ رحابة صدر، وأن نتّخذ العتبة الخشبيّة فراشاً لنا حين نأوي محتاجي الفراش، تعلّمنا أنّ ليالي الصّيف هي مذكّراتنا السماويّة، تعلّمنا أنّ السّكوت واجب في حضرة النّاي المسنّ، وأن موسيقانا ما هي إلّا تجارِبُ آبائنا، وكفاحهم اليوميّ،

لقدتعلّمنا أن نكون ركائز ثابتة عندما يغمر أحدنا الحزن، تعلّمنا أن نحصد معاً، نزرع معاً، نمشي معاً، نغنّي سويّاً ،نبكي معاً، تعلّمنا أن نسامر الريح معاً، وأنّ الرّاعي هو أجمل مخلوقٍ عرفتهُ السّهول،

وتعلّمنا أنّ صياح ديك الفجر هو منبّهنا اليوميّ، وأنّ قطعان المواشي هو رزقنا المتنقّل، تعلّمنا أنّ التّنقّل بين حقول القمح هو غذاء أرواحنا المتعطّشة للحياة، تعلّمنا أن العمل، والمثابرة، والتّعب هو كرامتنا من السّماء، وأنّ عرق جبيننا هو منهل قلوبنا القرويّة .

لدينا من القوّة ما يكفي لنحرّك الجبال، ونبني القلاع، ونسطّر السّهول،
لقد تربّينا بين أهل المروءة، والعزائم، تربّينا على الكرم والشّهامة، وتغذّينا من التّاريخ حتى أتخمت أرواحنا، وكبرنا سنينَ عديدة على وقع القرية، ولكن !!.
ها نحنُ اليوم ننعي بكلّ أسى فقد تخلّينا عن كلّ الوصف السرمديّ في عشق النّاي للسّماء، اليوم نتجالس لنحيي ذكر المحبّة الغائب، ونتصافح احتراماً للعادات لا لتقديس روابط جأشنا ،فبيادر الزرع تبكي تفرّقنا الدّائم، وحقول القمح تشكو للرّيح احتضاننا لها بأذرعتنا، ينابيعُنا تجِفّ شوقاً إلى رؤية قواريرنا تصطف منتظرةً سماعَ آذان امتلائها ، والسّفحُ الأخضرُ كساهُ الشّيبُ، وهجرتْه طيورُ الأجداد .

وبلبلٌ يبكي تغريدةً أعلى الصّفصافة الرّاحلة، يحثّ أوراق الرّبيع على العودة، ينثر جناحيه أمامها في مهبّ الوداع .

أَلَا أيها المارّون عبر جداول كفّي

أيا سكّان قبو ذاكرتي

أيّتها الملامح المفقودة .. أين أنتِ؟

أين أنتم يا زهور البنفسج؟

أسأل السّماء كثيراً ... هلّا التقينا.

بعض من النّجوم تلوّح في الأفق .. أَوَلم يكونوا أحبّتنا؟؟

ها هي السّماء تمطر ثانيةً ... أمطرت من ضحكات الرّاحلين

ربيعٌ صيفٌ خريفٌ رحل، وصوركم على بركة الماء حول المساء، .. وأتى الشّتاء

يا أيّها العابرون .. كفاكم رحيلاً .

الياسمين العربيّ له حكمة في النّمو ، فهو يمضي معظم حياته في تسلّق الجدار ليبقى ثابتاً ، لكنّ هنالك أغصان يغريها التّأرجح في الهواء .

هذا حالنا حين نسينا مبادئنا المرهفة.
تركنا تاريخاً يعُجُ بالثبات، والإخلاص، وسرنا في واقعٍ يعمّهُ الكذب.
نسينا أنّ رائحة الياسمين هي سبب حبّ الطّيور لمنازلنا ، وأنّ جمال الياسمين هو جمالنا الدّاخليّ، نسينا أنّ البحث عن جدارٍ ثابت ننمو عليه أفضل من التّأرجح في الهواء مع الأسف أصبحنا نتذكّر تاريخنا لنحتفل فيه لا لنعيشه مرّةً أُخرى، أصبحنا نربّي أولادنا على الكراهيّة، والأنانيّة
استخدمنا الزّجاج رداءً لبيوتنا الشّرقيّة .

نسينا أنّ الحصاد هو سر اجتماع أرواحنا، وأنّ السّهول هي ملاعب طفولتنا الصّادقة.
نسينا فنجان البُنِّ غارقاً في ثباته الشّتوي، وشفاهُ أجدادنا عالقةٌ عليه، نسينا أنّ لنا في سفوح الجبال مسقطَ رأسٍ يتغنّى بأيادينا الرّيفية المتعبة، نسينا أنّ كلَّ حجرٍ، وكلَّ طيرٍ، وكلَّ غصنٍ، وكلَّ نبعٍ قد شرب من عرق جبين الآباء.
سرنا خلف الضّباب، وتهنا في الصّحراء، ونسينا أرضنا .

نسينا أنّ الحصاد هو سر اجتماع أرواحنا، وأنّ السّهول هي ملاعب طفولتنا الصّادقة.
نسينا فنجان البُنِّ غارقاً في ثباته الشّتوي، وشفاهُ أجدادنا عالقةٌ عليه، نسينا أنّ لنا في سفوح الجبال مسقطَ رأسٍ يتغنّى بأيادينا الرّيفية المتعبة، نسينا أنّ كلَّ حجرٍ، وكلَّ طيرٍ، وكلَّ غصنٍ، وكلَّ نبعٍ قد شرب من عرق جبين الآباء.
سرنا خلف الضّباب، وتهنا في الصّحراء، ونسينا أرضنا .

والآن أخبرني أيّها الصّباح من أكون؟ أين الليلُ، وأين أنا منك؟
أين ما كبرتُ عليه، وأين حاضري الواعد الآن؟ أين ضحكاتُ
الرّبيع التي كنّا نسمعها بين الصّفصاف؟ .
هل أضعنا كل ما كنا نحلم به؟!، هل خسرنا كل ما امتلكناه
وامتلكنا؟! ، هل فات الأوان على العودة ؟!، هل مضى علينا
الوقت واستهلَكَنا الجهل فما عدنا قادرين على النهوض ؟! ، هل
تخلينا عن آلاف السنين من أجل كذبة الآباء .
فاليوم ترى الغراب يرتدي زي الكنار ويتخذ الأقفاص المنزلية
بيتاً له ، اليوم اقتلعنا كل الياسمين العتيق وزرعنا مكانه نباتا
للزينة خاليا من العطر العربي.

ففي أيامنا هذه تزينت بعض الناس بالطيبة والودّ وفي داخلها ظلام دامس ونفسٌ كريهة ، أناس وضعت عمامة الفقه لحفظها بعض المقالات الفكرية ، وآخرون ارتدوا عباءة الدين لإدراكهم أنّنا مؤمنون بكل ما يفتيه رجل الدّين صاحب الماضي الوضيع ، لكننا نغفر له ماضيه لبعض ما حفظ واحتراماً منا للدين الذّي لا ندرك منه شيئا ،فاليوم قد ترى امرأة رهنت نفسها لليل لحاجتها لإطعام أطفالها الجياع بعدما غرق زوجها في قارورة خمره القذرة ، وقدترى أطفالاً يسلّمون أنفسهم للقدر ويخسرون مستقبلهم وأحلامهم الطفولية بسبب بطش أب لا يعيشُ في دماغه سوى السّواد ، اليوم ترى أخاً خاصم أخاه ونسي رابط الدّم بينهما بسبب تغلب الطّمع على دمائه العفنة ، اليوم ترى الدّنيا مقلوبةً رأساً على عقبٍ لسيرنا خلف الجّهل ونسياننا كلّ ما تربينا عليه ، إنّه "المالُ" يا سادة يصنع كل شيئٍ ، وهو اللاشيء ..لكنّه في عالمنا هذا قد كان كلّ شيئ.

ثم يأتي رجل الدّين ذاته ويقول : قضى الله ما شاء فعل ".
فتستسلم عقولنا الجاهلة لكلام رجل الدين الفظ ، هو في نظرنا إنسانٌ متعبدٌ متصوفٌ متلطفٌ بأحوالنا ، فتصبح الحياة في نظرنا أقداراً مكتوبةً وننسى أنّنا مخيرين في كثيرٍ من اللحظات .
لكنّ المشكلة ليست في رجل الدّين بشكل كلّي ، لأن مجتمعنا سمح له بالتملّك والتجبّر وإصدار الأوامر المطاعة ، نحن أقنعنا أنفسنا بغياب قدرة الإنسان على النّجاة إلّا بالمساعدة الإلهية المستمرة ، أنّنا نعيشُ معظم حياتنا على أمل أن تتحقق أحلامنا دون أن نسعى في سبيلها أو نبذل أيّ جهد يذكر ، واعتمدنا على القرابين وعلى بخور النساء المسائي ، وانتظرنا كثرا حلول ليلة القدر لنتعبد السماء قليلاً . أفلا تلاحظون انزلاقنا الدّائم في منحدر الغباء ، ألا ترون الدّين المزيف الذّي يغطي عمامات الرّجال المخادعة ، ألا تنصتون إلى صوت التّائهين في الجّهل حين يعانقون الموت وهم على ثقة بحلول المعجزة ؟ .

هل يجب أن نستمر في الغرق ونحن نرى من غرق قبلنا ، هل من الطّبيعي رؤيتنا مد الجّهل يبتلع شواطئنا لبساطة حديثنا الشّرقي ، ألا تحلمون ؟ ، ألا تضحكون ؟، ألا تريدون أن تثملو على فرحة حلمكم المحقق ، أأنتم سعداء برؤية الهاوية تبتلع أطفالكم الحالمة ؟؟.

أما آن الأوان لننزع عنا زيّ قبح التّخلف العقلي ونعتنق التاريخ الصّحيح ؟.

فلا نهاية تحكى عن مآسينا ، فنحن الحطام وسط الحطام ،نحن الضياع ضمن الضياع ، نحن كلماتٌ وقصائد عابرة لا تعلق ولا تُغنى ، نحن أول حرب في التاريخ وآخرها قسوة ، نحن الحقيقة الكاذبة عن الحب الريفي العتيق ، نحن كنا ولا ذلنا نُهمش أنفسنا لكرهنا شرقية أصولنا العربية ، نحن النكران حين يكون الحمد هو التصرف الصحيح ، نحن التائهون في بحور الدنيا والغارقون في ليالي الجاهلين .

رسالةٌ أخيرة:

بدايةٌ إنّه الختامُ لي عندما أردتُ أن أكتب عني وعنكم ،عن عالمنا الهزلي المهلك .

فما جعلني أكتب هي مسيرتي القصيرة ونضالي وبسالتي في مجابهة الجل رغم خسارتي نفسي منذ تسع سنين مرّت سدىً..

فأنا أريدُ أن أراك منتصراً على ذاتك المحطمة اردیك مزهراً دائماً ،أريد منك مثلما قرأت كلماتي أن أقرأ النّور في أحداقك .

فلنحاول فقط أن نسير بعكس التيار عكس تيار الجهل ،لنحاول نحن الصادقون أن نحترم عشقنا لتاريخنا الضائعوا الطيور تهاجر كما تحبّ، لاتقطفو براعم الورد ظنّاً منكم أنّهُ يزدادُ جمالاً،فالورد لايحتاج من يعلمهُ الجمال ،لاتخيبوا أمل السحاب في أراضيكم العطشى ،ولاتيأسوا من عبادتكم لأحلامكم، دعوا الجهل لأهل الجهل،وانتزعوا مخاوفكم من السفر وأمضوا ثائرين، توهوا وأنتم تجالسون المعرفة وأخسرو في سبيلها أغلى ماتملكون فهي طريقنا الوحيد للنجاة ، اتركوا أولادكم يموتون في الحلم ولا تيأسوا من روح النّصر فيهم ،دعوا لهم السهول والجبال والينابيع والتاريخ والكرم والكبرياء والنخوه وضيعوا أنتم في ضياعكم لايهم .

وأقولُ لكم نهايةً:

ثقوا بالطفولة ياناضجي القطار فأنا كتبتُ على صفيح النّضوج .